انتقاءات : سلامة الذوق

من كتاب

فقه المروءات

تأليف

أ. د محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن الجوزي

فقه المروءات

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٧هـ
الحمد، محمد إبراهيم
فقه المروءات. / محمد إبراهيم الحمد - ط١. -الدمام، ١٤٤٧هـ.
٤٣١ ص، ١٧×٢٤سم
رقم الإيداع: ١٤٤٧/٢٨٨
ردمك: ٣ - ١١ - ٨٥٢١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٧هجرية
٢٠٢٥ ميلادية

الباركود الدولي: 9786038521113

حقوق الطبع محفوظة ©١٤٤٧هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة:
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

الثالثة والعشرون:
سلامة الذوق

١ ـ مفهوم الذوق

الذوق لفظٌ لطيفٌ في مبناه وفي معناه، وله ارتباطٌ وثيق بالمروءة.

والذوق كلمة معبرة موحية، تدل علىٰ معانٍ جميلةٍ، فهي تعني اللطف، وجمال المعشر، وحسن المدخِل، وتجنب جرح الإحساسات.

وتعني ـ كذلك ـ حسنَ العطاء، وحسنَ الأخذ، وحسنَ الحديث، وسموَّ النفسِ، وسموَّ اللفظ، وسموَّ كلِّ ما يصدر من الإنسان من قولٍ أو من فعلٍ.

فالذوق يكاد يدخل في كثيرٍ من تصرفات الإنسان، سواءً القولية منها أو الفعلية، وسواءً ما يفعله أو ما يَذَرُهُ؛ فالذوق ـ بهذا الاعتبار ـ داخلٌ في المعنويات، والمعنويات مكانها القلب والعقل والروح، وإن كان في الأصل داخلًا في الحسيات؛ إذ هو في الأصل من ذوق اللسان، وتمييزه ما يُذَاقُ من حلوٍ أو مرٍّ، أو حارٍّ أو باردٍ، وكذلك إحساس الجسم بالملائم أو المنافِر.

ولكن المقصود به ههنا ما هو داخلٌ في المعنويات أكثر من دخوله في الحسيات.

ولهذا يقال: فلان عنده ذوق، وفلان قليل الذوق، وفلانٌ سليم الذوق، وفلانٌ عديم الذوق، والمعاجم لا تشير إلىٰ مثل هذه المعاني، وإنما تشير إلىٰ معانٍ مرادفة لمعنىٰ الذوق.

ولفظ الذوق يعتريه ما يعتريه ـ بما يسمىٰ بعلم فقه اللغة والصوتيات ـ بتطور الدلالة وانحطاط الدلالة.

وذلك يعني أن بعض الكلمات قد يكون لها قبول ودوي ووهج في وقت

من الأوقات، ثم يخفت ذلك الدوي والوهج، والعكس؛ إذ قد لا يكون لها معنًى في السابق، وتأتي أزمان متأخرة؛ فيصبح لهذه الكلمة معنًى أخص أو أعم.

وفي كتب الأوائل تجد الإشارات الكثيرة حول الذوق، لكن الكلام عن الذوق بهذا المعنى ربما تجده قليلًا كما في الحديث عن الذوق الأدبي.

٢ ـ تفاوت الناس في الذوق

الذوق يختلف من إنسان إلى إنسان؛ فقد يكون عند بعض الناس ذوقٌ فطري في أصل خلقته؛ فتجده صاحب ذوق، وقد يكون ورثه من والديه، وقد يكون تربى على سلامة الذوق في مجالس أهله وبيئته ومدرسته ومعلميه، وقد يزيد منسوب الذوق عنده.

وبعض الناس عديم الذوق، ومع ذلك لا يربي نفسه على ارتفاع ذوقه؛ فتجد أنه يستمر على ذلك، بل ربما زاد سوءًا وجفاءً.

وبعض الناس بليد في أصل خلقته؛ فلا تنفع معه التأديبات؛ لأن قلة الذوق متأصلةٌ في نفسه؛ وفيه نوع من الجفاء، والغلظة، والكزازة وربما تجده معتزًا بتلك الرعونات، أو لا يبالي بما يقال عنه مدحًا أو قدحًا.

قال الحكيم العربي:

نفروا عنها لواذًا وإذا ... جَفَّ طبعُ المرءِ لم تُغْنِ النُذُر

ما زكى تفاحُ لبنانَ على ... حَسَكِ السعدان في ذوق مَذِرْ[1]

هكذا في نظر الأعشى استوى ... زهرُ روضٍ وهشيم المحتظر

وعلى مثل هذا يحمل قول النظَّام، وهو أنهم ذكروا رجلًا استوى عنده المدح والذم، فقال: «استراح من حيث تعب الكرام».

ولما قيل للقمان عليه السلام: «من شر الناس؟» قال: «من يسيء ولا يبالي أن يراه الناس مسيئًا».

---

(١) المَذِر: الخبيث الفاسد.

فلا غرو ـ إذًا ـ أن يكون غَرَضًا للذم، وعرضةً للوم:

ومن دعا الناس إلىٰ ذمِّه ... ذمُّوه بالحق وبالباطل

مقالة السوء إلىٰ أهلها ... أسرع من مُنْحَدِرٍ سائل

وأقبح من ذلك أن لا يبقىٰ عنده أدنىٰ ذوق ولا إحساس، كحال من يلتذ بالذم أكثر من التذاذ الأسوياء بالثناء الصادق.

وهذا من غرائب الأخلاق، ولئيم الطباع.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن لؤم الغرائز: أن من الناس من يحب الذم كما يحب غيره المدح، ويرتاح للهجاء كما يرتاح غيره للثناء.

ومنهم من يغري بذم قومه، وسبِّ نفسه وآبائه، وشتم عشيرته».

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلة من هذا القبيل لبعض الشعراء ممن هم علىٰ تلك الشاكلة.

وبعض الناس قد يجالس أصحاب الذوق، ولكن لا يقبس منهم شيئًا أبدًا، كشجرة الحنظل التي تنبت علىٰ شاطئ الوادي العذب القُراح.

وقد يكون هو لا يريد التأثر، وإلا لو أراد لربما تلطف شيئًا فشيئًا.

فالحاصل: أن الذوق هو ـ في الحقيقة ـ فطريٌّ متأصل في بعض النفوس؛ فَتَجِدُ أن بعض الناس، بل بعض البلاد، وبعض الأُسَر ذات ذوقٍ مرتفع، ولو حصل أن يؤخذ منها تطعيمات تعطىٰ بعض الناس لربما كَفَتْ وَوَفَّت، والعكس.

ثم إن الذوق مطَّرد عند بعض الناس: في لباسه، وفي طريقة كلامه، وفي حواره، وفي أخذه، وفي عطائه، وفي اختياراته، وفي إكرامه للضيوف، وفي سائر ما يأتي وما يذر، وإن كان الناس يتفاوتون في ذلك.

وتجد الذوق عند بعضهم في ناحيةٍ دون أخرىٰ؛ إذ بعض الناس ذوقه في الحسيات، وبعضهم ذوقه في المعنويات، وبعضهم في مظهره، وبعضهم في كلامه وتعامله، وكل ذلك داخل في المروءة؛ إذ المروءة مظهر ومخبر.

٣ ـ الذوق في الشريعة

الشرائع السماوية عمومًا، والشريعة الخاتمة شريعة الإسلام، وهي شريعة القرآن الذي جاء بها النبي محمد ﷺ علىٰ وجه الخصوص حافلة بالعناية بالذوق.

ولو ألقيتَ نظرةً عجلىٰ في شريعة الإسلام لأدركتَ أن سلامة الذوق ظاهرة في شتىٰ العبادات، والإرشادات، والتأديبات، والمخاطبات.

فترىٰ ذلك ـ علىٰ سبيل المثال ـ في العبادات؛ فلو أتينا إلىٰ الصلاة لوجدنا أن الذوق حاضر فيها؛ فالمسلم يتوضأ، ويتطهر، ويغسل يديه، ووجهه، ورجليه، وبذلك يرفع الحدث.

ثم إن للوضوء فروضًا، وله واجبات ومستحبات؛ ومنها أن يستاك المسلم قبل الوضوء، ويستاك ـ كذلك ـ قبل الصلاة، ويأخذ زينته: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكل ذلك داخلٌ في الذوق.

وكذلك يأتي المصلي إلىٰ المسجد وعليه السكينة والوقار، وأُمِر ـ كذلك ـ ألا يتخطىٰ الرقاب خصوصًا في صلاة الجمعة، وأُمِرَ المصلون أن يسووا صفوفهم ويحاذوا بين مناكبهم، وفي ذلك ذوق؛ فأنت تشعر بسبب ذلك بالوَحْدَة واللحمة والقربىٰ؛ لأن الإنسان إذا ابتعد عنك شعرت بأنه لا يريد القرب منك، والبعد في المسافة يورث بعدًا في القلب في كثيرٍ من الأحيان.

واستُحب للمصلي ـ كذلك ـ أن يأتي ورائحته طيبة، ونُهي أن يأتي وقد أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو ما أشبهها.

وأُمر المسلمون بالعناية بالمساجد من ناحية تطهيرها، وتنزيهها، وتطييبها، وذلك من سبل العناية بها؛ فالذوق ـ إذًا ـ حاضر في الصلاة، وما يتعلق بها.

وكذلك الذوق حاضر في الحج؛ فقد أُمِرْنا بالسكينة، قال النبي ﷺ: «**السكينة السكينة، وليس البر في الإيضاع**».

وكذلك في الصيام؛ حيث تجد الذوق حاضرًا فيه، ومن ذلك احترام الوقت؛ فالسحور في وقت، والإفطار في وقت.

بل إن الصائم جُبِرَ خاطرُه، وخاطرُ مَنْ قد يشم منه رائحةً قد تكون مستكرهة من أثر الصيام - بكون هذه الرائحة أطيب عند الله من ريح المسك؛ جبرًا للخاطر، ودفعًا للوهم الذي قد يقول: إن الصائم تنبعث منه رائحةٌ كريهة قد تتكرهها بعض النفوس؛ فجبر هذا الخاطر بهذا المعنىٰ العظيم.

وكذلك الزكاة يَحْضُر فيها الذوق؛ ذلك أنها تُعطىٰ المسكين خُفْيَةً دون أن تُصْدَع قناةُ عزته.

وأيضًا أُمِر الآخذ ألا يأخذها ويقول: هذا حقي وليس لأحدٍ فيه منّة، وأعطوني من مال الله، وإنما أُمِر أن يدعو لمن أعطاه، وبهذا تسود المودة، وإذا سادت المودة ارتقت المروءة.

وكذلك ترىٰ الذوق حاضرًا في الدعاء، والنبي ﷺ لما سمع أصحابه رفعوا أصواتهم قال: «**اربعوا علىٰ أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته**».

فمن الذوق في الدعاء: ألا يرفع الداعي صوته به، وألا يعتدي في الدعاء، وأن يحرص علىٰ اختيار الكلمات الجامعة، وأن يبتعد عن التفصيلات التي لا داعي لها، وألا يلحن، وأن يتأدب بآداب الدعاء عمومًا، وتتأكد تلك المعاني في حق من كان إمامًا.

وكذلك تجد الذوق حاضرًا في سائر التعاملات، والعلاقات سواء مع الوالدين، أو الأقارب، أو الجيران، أو من خلال البيع والشراء.

وبالجملة فإن الذوق حاضر في تفاصيل الشريعة، والمقام لا يتسع للتفصيل.

٤ ـ الارتقاء بالذوق

أول خطوة في ذلك: هي شعور الإنسان بأهمية الذوق، وخصوصًا إذا كان مبتلًى بمرض قلة الذوق، ثم يسعىٰ سعيه بعد ذلك للعلاج؛ فحاله حال المرضىٰ الذين يسعون لعلاج أنفسهم.

لكن المصيبة إذا رضي الإنسان بما هو عليه، أو لم يشعر بمرضه؛ فهذا لا يمكن علاجه كالمريض إذا قال: أنا لست مريضًا؛ فلا يزال الداء به حتىٰ يفتك به، ويهلكه.

وإذا كان الإنسان حريصًا علىٰ الارتقاء بذوقه فعليه حينئذٍ أن يسأل نفسه: ما حالي مع الذوق؟ ما طريقة الارتقاء بالذوق؟ وكيف أتعامل مع الناس بالذوق؟

وإذا كان ذا ذوقٍ رفيعٍ فليحمد الله علىٰ هذه النعمة، وليحرص دائمًا علىٰ الارتقاء بذوقه، وإذ كان قليل الذوق فليأخذ بالأسباب التي ترتقي بذوقه.

ومما يرتقي به أن يجالس أصحاب الذوق، ويقرأ في الكتب التي تشير إلىٰ مثل هذه المعاني.

وإذا رقي الذوق في مجتمع كان رُقِيُّه ـ كما يقول أحمد أمين ـ أعظم من رقيّ العقل؛ لأن الذوق إذا رقىٰ أَنِفَ من الأعمال الخسيسة، والكلمات الجارحة، والتصرفات غير اللائقة.

وإذا رُزق الإنسان ذوقًا سليمًا مهذبًا فتلك نعمةٌ يُسْتَوجب شُكْرُها، ويُسْتَنْكَر كنودها؛ فمن النعم الكبرىٰ أن يرزق الإنسان ذوقًا سليمًا يعرف به كيف يتصرف مع الناس، وكيف يأخذ، وكيف يعطي، وكيف ينصح، وكيف يدعو، وكيف يكرم، وكيف يشكر، وكيف يستمع، وكيف يتحدث، وكيف يجالس، وكيف يعاتب، وكيف يعتذر، وكيف يبيع، وكيف يشتري؛ فالذوق ـ في الحقيقة ـ يجري في شتىٰ شؤون الحياة.

ولو راقب الإنسان نفسه منذ أن يقوم من النوم إلىٰ أن يأوي إلىٰ فراشه

لوجد أن كثيرًا من نجاحاته قد يكون من جملة أسبابها حسنُ ذوقه، وتلطفه، والعكس.

٥ ـ حضور الذوق وغيابه

المروءات ـ كما يقولون ـ تحضر وتغيب، والذوق من جملة ذلك، لكن **صاحب الذوق السليم هو من يحرص** قدر المستطاع علىٰ ألا تكون مشاعره الداخلية، ومزاجه الحاضر هو الذي **يتحكم في تصرفاته**؛ بحيث إذا رضي أعطىٰ وتكلم بالكلام الطيب، وإذا غضب منع، وانفلت لسانه لا يلوي علىٰ شيء.

وإنما يوطن نفسه علىٰ كل وارد، ولا يستسلم لحاله الحاضرة، ولا لتأثراته النفسية القريبة، وذلك شأن الذين ذُلِّلت لهم سبل المكارم تذليلًا؛ فتجد الواحد من أولئك ـ على سبيل المثال ـ لا يجعل طلابه أو مرؤوسيه ضحيةً لمشكلاته في المنزل، ولا يجعل المنزل ضحيةً لمشكلاته في العمل والمدرسة، وإنما يحاول قدر المستطاع أن يلزم طريقةً واحدة.

ولا ريب أن في ذلك صعوبة ومشقة؛ لأن الإنسان تمر به حالات، وتعتريه مشكلات، وتنتابه أحوال قد تعمل عملها في قلبه؛ فقد يظهر أثرها علىٰ وجهه وعلىٰ تصرفاته.

لكن الحكيم الحازم العاقل هو الذي يُحْكِمُ نَفْسَهُ، ويلجمها بلجام العقل، ويحاول قدر المستطاع ألا يتقلب كتقلب الجو جرَّاءَ ما يعتريه من تأثُّراتٍ نفسية، وإنما يحاول قدر المستطاع أن تكون حاله واحدة، كما يقول أبو الطيب:

وحالات الزمان عليك شتىٰ ... وحالك واحدٌ في كل حالِ

وكما قال أسامة بن منقذ:

إذا أدمت قوارصهم فؤادي ... كظمت علىٰ أذاهم وانطويت

ورحتُ إليهمُ طلقَ المحيا ... كأني ما سمعت ولا رأيت

فالعاقل هو الذي يحرص علىٰ مثل هذه الحال؛ فيصنع مزاجَه، ولا يصنعه مزاجه؛ ولهذا تجد اختلاف الذوق أو تغير المزاج حاضرًا عند كثير من الناس؛ فتقابله اليوم فيحييك بأحسن تحية، ثم تقابله غدًا فيشيح بوجهه عنك، ثم لا تدري ما العلة، لكن إذا عرفت طبيعة ذلك الإنسان هان عليك ما تلقاه منه؛ لأنك ربما آذيت نفسك إذا قلت: أنا السبب، ماذا فعلتُ؟ ربما فعلتُ كذا وكذا، لكن إذا علمتَ أن طبيعته هكذا ارتحت، وأرحت[1].

٦ ـ أثر سلامة الذوق

لسلامة الذوق أَثَرٌ علىٰ الفرد نفسه؛ إذ يعيش براحة، وهدوء، نعم هو يتعب من جهة كثرةِ المراعاة، وتَجَنُّبِ كثيرٍ من الأمور التي قد تفهم علىٰ غير وجهها، ونحو ذلك مما ينافي الذوق، ولكنه يرتاح من جهة أخرىٰ؛ لما لسلامة الذوق من حسن العاقبة؛ ولهذا دائمًا نكرر بيت أبي الطيب:

تَلَذُّ لَهُ المُروءَةُ وهيَ تُؤذي ومَنْ يَعشَقْ يَلَذّ لَهُ الغَرامُ

فسلامة الذوق فيها نوع مشقة، لكنها تريح الإنسان، وتجلب له المودة، وتجذب إليه القلوب؛ فإن كان بائعًا كسب قلوب الزبائن، وإن كان داعيةً استجلب قلوب المدعوِّين، وإن كان معلمًا أحب طلابه وأحبوه، وإن كان مديرًا كسب من تحت إدارته؛ فتجد المدير الناجح، والرئيس العاقل هو من يصدر الأوامر بلطف، ويحاول جُهْدَه ألا يصدر الأوامر الصريحة، وتجد أن الطالب صاحب الذوق يحسن معاملة أستاذه.

وقد يأتيك إنسان وقد أخطأ خطأً كبيرًا، فيعتذر منك بلطف جميل لا تستطيع معه أن تعاتبه بكلمة.

والعكس؛ فقد يأتيك إنسان وقد أخطأ خطأً يسيرًا جدًّا، ثم لا يحسن التصرف، ولا يحسن الاعتذار؛ فيكون ذنْبُه مرَكَّبًا، ولا يكاد يظفر بحاجته.

والمجتمعات والمجالس التي يسود فيها الذوق تجد أن حواراتِها هادئة،

---

(١) وقد يسَّر الله تفصيل ذلك في مقالٍ عنوانه: (صناعة المزاج)، وهو في كتاب (سوانح).

وتجد أن نفوس أهلها مطمئنة، فيشيع بينهم الاحترام، والمودة، وكل أمر جميل.

والعكس من ذلك ما تجده من مظاهر قلة الذوق في بعض المجتمعات، والمجالس، أو ما تجده في كثير من المظاهر السيئة، والتي مرجعها أمور كثيرة، وعلىٰ رأسها قلة الذوق.

٧ ـ مظاهر لقِلَّة الذوق

مظاهر قلة الذوق كثيرة، ومن ذلك: ما تجده في ممارسة بعض العبادات، فتجد من يأتي إلىٰ الصلاة برائحةٍ كريهة؛ فما الذي يمنع الإنسان أن يتهيأ للصلاة بوقت كافٍ، وأن يلبس أحسن ما عنده، وأن يعتني بطيب رائحته، أو في الأقل أن يقطع ما به من رائحة لا تليق؟

وكذلك ما يفعله بعض من يحرصون علىٰ التقدم في الصفوف الأولىٰ للصلاة؛ فبدلًا من أن يبَكِّر إلىٰ الصلاة، ويكون في مقدمة الصفوف تراه يأتي متأخرًا جدًّا، وإذا رأىٰ فرجةً نَصَّ إليها، وهذا حسن مطلوب؛ إذ سد الفُرَج من تمام تسويةِ الصفوف، وتسويةُ الصفوف من تمام الصلاة.

ولكن لا بد أن يكون ذلك بذوق، ولطف، ومودة، واحترام، لا كما يصنعه بعض الجفاة الذين يظنون أنهم يحسنون صنعًا؛ حيث ترىٰ الواحد منهم إذا رأىٰ فرجة انقضّ عليها انقضاض الأسد علىٰ فريسته بكل شَرَهٍ، وهلع، وربما دفع مَن أمامه، وربما سبق إنسانًا تقدَّم إلىٰ تلك الفُرجة وهو أحق بها.

وفي الحج ـ علىٰ سبيل المثال ـ تجد الزحام الشديد عند الجمرات، وعند الحجر لأسود، ولو قام الذوق وقام الإيثار لما حصلت مثل هذه المشكلات.

وقل مثل ذلك في حال قيادة المَرْكَبَات؛ إذ ترىٰ قلة الذوق من خلال كثير من التصرفات التي ينبو عنها الذوق، كالتهور في القيادة، وكإطلاق الأبواق في الأماكن العامة بلا داعٍ، وعند البيوت وفي ساعاتٍ متأخرة من الليل.

وتجد مظاهر قلة الذوق ـ كذلك ـ في الكتابة علىٰ الجدران، وهي أحيانًا تفسد الذوق الحسي والمعنوي: الحسي بما تحدثه من إفساد تلك الأماكن، والمعنوي: بما تحمله من عبارات سيئة بذيئة؛ فكل هذا يشير إلىٰ قلة الذوق.

وكذلك الشأن في اللباس، والأكل، والكلام؛ إذ ذلك كلُّه خاضع لأذواق الناس حِطَّة ورفعة.

وبالجملة فإن الذوق جارٍ في شتىٰ شؤون الحياة، والإسلام أتىٰ بأرقىٰ درجات الذوق، وأدق تفاصيله ليس في السلم فحسب، بل إن للحرب ذوقًا وآدابًا تُلَطِّفُ لأواءها، وبأسها، وشدة لهيبها.

والكلام عن الذوق يحتاج إلىٰ مزيد بسطٍ، والمقام لا يسمح إلا بما مضىٰ من الإشارات.